مجلة تداوليات ISSN :2992-0795

المجلد: الأول01 / العدد: الأول 01 /سبتمبر2023 / ص ص: 40- 52

اللسانيات العرفانية في الدرس العربي بين الحضور المنهجي والتأصيل المقارب

Title of the intervention: Epistemological Linguistics in the Arabic Linguistics between Methodological Presence and Contextualized Grounding

أ.د: سعودي النواري

ط.د: ميلودي مايسة الخنساء

جامعة محمد لمين دباغين سطيف 02

miloudifadwa1@gmail.com

الملخص:

تحاول هذه الدراسة عرض حال التلقي العربي للسانيات العرفانية، من خلال التنظير لأهم المفاهيم والمرتكزات التي قام عليها هذا الأنموذج اللساني الذي يمثل حقلا معرفيا جديدا ظهر في الغرب، وأصبح يوما بعد يوم يعرف انتشارا واسعا. فاللسانيات العرفانية انفردت بخصوصية الجمع بين اللغة والمعرفة، كما أنها تهتم بوصف القدرات المعرفية للمتكلمين، وتركز على كل ما يقع في ذهن المتكلم عندما يتواصل باللغة، وهي بذلك تتجاوز البنية الشكلية للغة لتخترق أعماق صورها الإدراكيّة. فهل اطلع اللغويون العرب المعاصرون على هذا المنجز؟ وهل أحاط أسلافنا بها خبرا في كتاباتهم؟

وبناء على هذا، تتوخى دراستنا استعراض: مفهوم اللسانيات العرفانية، وظروف نشأتها، والبحث عن جذورها في التراث العربي الإسلامي، هادفة إلى تسليط الضوء على مدى تفاعل هذه الدراسة اللسانية المعاصرة مع البحث اللغوي العربي

Abstract:

This study attempts to present the status of Arab reception of Epistemological Linguistics by theorizing the most important concepts and foundations upon which this linguistic model is based. This model represents a new field of knowledge that emerged in the West and has gained widespread popularity over time. Epistemological Linguistics stands out for its unique fusion of language and knowledge. It is concerned with describing the cognitive abilities of speakers and focuses on everything that occurs in the mind of a speaker during language communication, going beyond the formal structure of language to penetrate the depths of its cognitive images. Have contemporary Arab linguists been acquainted with this achievement? Did our ancestors have knowledge of it in their writings?

Based on this, our study aims to review the concept of Epistemological Linguistics, the circumstances of its emergence, and the search for its roots in Arab-Islamic heritage. The objective is to shed light on the extent of interaction between this contemporary linguistic study and Arabic linguistic research.

Keywords: Linguistics, Epistemological, Western Linguistics, Arab heritage, Arabic linguistics

تقديم:

يقول تعالى في منزل كتابه الحكيم:﴿ وعلم آدم الأسماء كلها﴾ البقرة: 31 صدق الله العظيم، من هذه الآية الكريمة نجد أن علاقة الإنسان باللغة علاقة أزلية ارتبطت بعلاقات متكاملة ومتناسقة، شغلت الإنسان طورا من الزمن، ومع تعاقب الحضارات والعلوم سعى إلى إيجاد علم يفسّر هذه اللغة، وارتوى من مشارب علمية كثيرة، واهتم بها من مناح معرفية متنوعة بدء بالفلسفة اليونانية، فالموسوعية العربية الإسلامية، وصولا إلى عصر النهضة والتطور

التكنولوجي. فصار لهذه اللغة علم خاص بها يدرسها بطريقة علميّة موضوعية، سُميّ باللسانيات التي ظهرت بدء مع البنيوية السوسيرية بوصفها البنية الداخلية للغة دون الاعتمام بكيفية انتاجها، إلى التوليدية التشومسكية التي سعت إلى بناء نموذج رياضي يفسّر كيفية انتاج الجمل وتوليدها في العقل، وهذه المقاربات نظرت للغة باعتبارها نظاما مكونا من وحدات مترابطة، وجهت لها مجموعة من الانتقادات استدعت ظهور مقاربة جديدة تسعى لفهم كيفية تمثيل اللغة في الذهن وكيفية ارتباطها بالمعرفة العامة والتجربة البشرية، سُميّت باللسانيات العرفانية التي سنعرض حضورها في الدرس العربي الحديث والتراثي.

1- مفهوم اللسانيات العرفانيّة:

- مدخل إلى اللسانيات العرفانيّة [1] Linguistique Cognitive :

لكل علم بداية من التأسيس للمنطلقات المعرفية، ومما لاشك فيه هو أن أي عمل فكري لا يرقى إلى مستوى العلميّة إلا إذا توفرت فيه المرجعية المعرفية، ورافقه قاموس اصطلاحي. وبالعودة إلى اللسانيات العرفانية فنجد أنها:" من العلوم الحديثة التي ترتبط ارتباطا وثيقا بالدراسات النفسيّة مثل: علم النفس، الأنثروبولوجيا، الذكاء الاصطناعي، العلوم الحاسوبية، وكل العلوم التي تتصل بالمعرفة والإدراك بشكل عام؛ فهي تدرس الذكاء البشري وخلفياته البيولوجية وتجلياته النفسية وانعكاساته اللغويّة"[2]

"كما ارتبط ظهورها تاريخيا بمجموعة الأعمال التي ظهرت في النصف الثاني من القرن العشرين على يد كل من جيل جورج لايكوف(Lakoff Gearge) فوكونييه (G.fauconier) وروش (Rosh) وشارل فيلمور(Ch.fillmore) ، وغيرهم من الذين اهتموا بالبحث في علاقة اللغة بالذهن وعدلوا عن الاتجاه السائد في شرح الأنماط اللغوية لاكتفاء ذلك الاتجاه بدراسة الخصائص الهيكلية للغة،" فقد عمل كلّ واحد منهم وفق مقاربة خاصة، بالتركيز على جهاز بعينه، غير أنهم أجمعوا على أن اللغة هي محور الدراسة وأن جميع البنى اللسانية جاءت لتخدم المعنى والدّلالة التي غدت المحور الرئيس في مقاربتهم العرفانية على نقيض مذهب تشومسكي الذي يركز اهتمامه على التركيب"[3]

فالعرفانيون اهتموا بدراسة اللغة من منظور الإدراك البشري، واعتبروها مرتبطة بالعمليات العقلية والمعرفية للإنسان.

- **من اللسانيات التوليدية إلى العرفانيّة:**

عرفت الدراسات اللغوية في العقود الأخيرة تحولات مهمة من اللسانيات التوليدية التحويلية، التي أسسها نعوم تشومسكي، إلى اللسانيات العرفانية، التي طوّرها كل من جورج لايكوف وآخرون، هذا التحول عكس الاختلاف الجوهري في فهم اللغة: من كونها نظاما شكليا مستقلا تحكمه قواعد فطرية، إلى كونها ظاهرة مرتبطة بالإدراك البشري والتجربة الحسية

فقد "عُرف عن اللسانيات التوليدية مباينتها لمناهج البحث البنوي التي تعين النظر في النظام اللغوي معزولا عن سياق استعماله من جهة، وعن جملة العمليات العقلية التي تسبق عمليات إنتاج اللغة من جهة أخرى، وقد نظر تشومسكي(N.chomsky) في العمليات العقلية التي تخص الإدراك والتصور والخيال، وجل العمليات التي هي من صميم أبحاث علم النفس المعرفي، الأمر الذي ولّد ردة فعل قوية لدى بعض التلاميذ المستثمرين لمفرزات علم النفس المعرفي، ومن أبرز تلك المفرزات الزعم بأن المعرفة اللغوية تندمج ضمن بقية الآليات العقلية، ويحكمها ما يسمى بالبنية التصورية التي تضم المعلومات اللغوية وغير اللغوية"[4]

يعود الانتقال من التوليدية إلى العرفانية إلى تطور الأبحاث في علوم الدماغ، مما كشف أن اللغة ليست مجرد نظام منعزل، بل ترتبط بطريقة تفكير الإنسان وتجربته في الحياة، هذا التحول يعكس اتجاها أوسع في العلوم الإنسانية نحو فهم الظواهر اللسانية بطريقة شمولية تجمع بين اللغة والإدراك والثقافة.

اللسانيات العرفانية في التراث العربي الإسلامي:

اللفظ العرفاني له دلالته التعيينية كما تداولها السالكون، وله إشاراته الفردية كما وردت عند أصحابها، ويسعنا أن ننبه أن اللفظ العرفاني يظل دائما ممتنعا عن تقبل المعنى الخارجي الشارح له، لأنه قالب عضوي قيد فيه صاحبه مضغة من روحه، لا يمكننا أن نصل إلى تحديد حجمها وصورتها. من هنا نقر أن السعي إلى تأويل فحوى المفردة القلبية هو جهد اقترابي ليس إلاّ

رغم أن اللسانيات العرفانية علم حديث النشأة في الغرب إلا أن العديد من أفكارها وأساليبها كانت موجودة في التراث العربي، خاصة في الدراسات اللغوية والبلاغية والفلسفية التي تناولت العلاقة بين اللغة والفكر والإدراك،

فقد عرف عن علمائنا الأجلاء موسوعيتهم في الدراسات فكانوا" يجمعون كلّ قريب أوبعيد مما يؤلفون فأنتجوا المؤلفات ذات الصبغة الموسوعية وكانت دلالة الأدب عندهم الأخذ من كلّ شيء بطرف"[5]، هذه الموسوعية كانت بمثابة أداة لنقل المعرفة وحفظها، وشكلت جزء مهما من الثقافة العلمية للحضارة العربية.

احتوى التراث العربي على العديد من المفاهيم التي تتماشى مع اللسانيات العرفانية الحديثة تمثلت في العلاقة بين اللغة والإدراك عند اللغويين العرب، حيث أشاروا إلى أن اللغة مرتبطة بالتجربة البشرية والمعرفة الذهنية، فاستعمال اللغة يرجع إلى النظام العرفاني المتحكم في أصلها بالدماغ، ولا يمكن عزلها عن النشاط العرفاني الذي يقوم به الذهن لتوليد المعاني والدلالات حيث يرتبط استعمالها بمجالها التمثيلي عند الفرد ليكون إنتاج المادة القولية تابعا للرصيد اللغوي الذي يمتلكه ويختزنه" ومن أبرز هذه الإسهامات:

- نظرية النظم عند الجرجاني، فالمعنى لا ينبثق من الكلمات وحدها، بل من التصور الذهني الذي يتولد عند المتلقي عند سماع الخطاب،" الناس إنما يكلم بعضهم بعضا، ليعرف السامع غرض المتكلم ومقصوده"[6]، وهذا ما ذكره في نظرية النظم. "فالحديث عن مقتضيات النظم في الإنجاز اللغوي هو حديث عن شروط الكلام وما ينبغي الانتباه له أثناء تأليف الخطاب من معطيات نحوية وتركيبية ودلالية يستقيم بها الكلام ويحدث الإبلاغ ويحصل الفهم عند المتلقي"[7] فالنظم عملية عقلية تستند إلى آليات ذهنيّة وميكانيزمات عرفانية يقوم بها العقل في تعليق الكلام مع بعضه، وهذا ما أكده الجرجاني في قوله:" ليس الغرض بنظم الكلم أن توات ألفاظها في النطق بل إن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل وكيف يتصور أن يقصد به إلى توالي الألفاظ في النطق بعد أن ثبت أنه نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض وأنه نظير الصياغة والتحبير والنقش وكل ما يقصد به التصوير"[8]

ووفق هذا النسق يتم النظر إلى المعاني التي ترتبط بالجانب الخلاّق في العملية الإبداعية ليكون الوقوف عند طريقة انتظامها وتمثلها لذهني عاملا مساعدا في نزع الغموض عنها وتجلية دلالتها العقلية العميقة وتمظهرها اللغوي المجسّد[9]

- الاستعارة والمجاز عند البلاغيين: أمثال السكاكي وابن جني، الذي تحدث في كتابه الخصائص عن كيفية تشكل الدلالة عبر السياق، وهذا ما يقابل فكرة استخلاص المعنى من التجربة الذهنية لطرفي الخطاب

- **التفكير العرفاني من منظور تراثي عربي:**

" علم العرفنة حقل جديد يجمع ما يعرف عن الذهن في اختصاصات أكاديمية عديدة، علم النفس واللسانيات والانثروبوجيا والحاسوبية. وهو ينشد أجوبة مفصلة عن أسئلة من قبيل: ما هو العقل؟ كيف نعطي تجربتنا معنى؟ ما هو النظام المفهومي؟ وكيف ينتظم؟ هل يستعمل جميع البشر النظام المفهومي نفسه؟ وإن كان كذلك ما هو بالتحديد ذلك الشيء المشترك بين بني البشر جميعهم في ما به يفكرون؟"[10]

إن التفكير العرفاني في التراث العربي يقوم على علاقة المتكلم بالمتلقي والخطاب، وهذا ما تدرسه البلاغة العربية، والمخطط الآتي يبيّن أهم القضايا التي ضمنها الدرس البلاغي القديم.

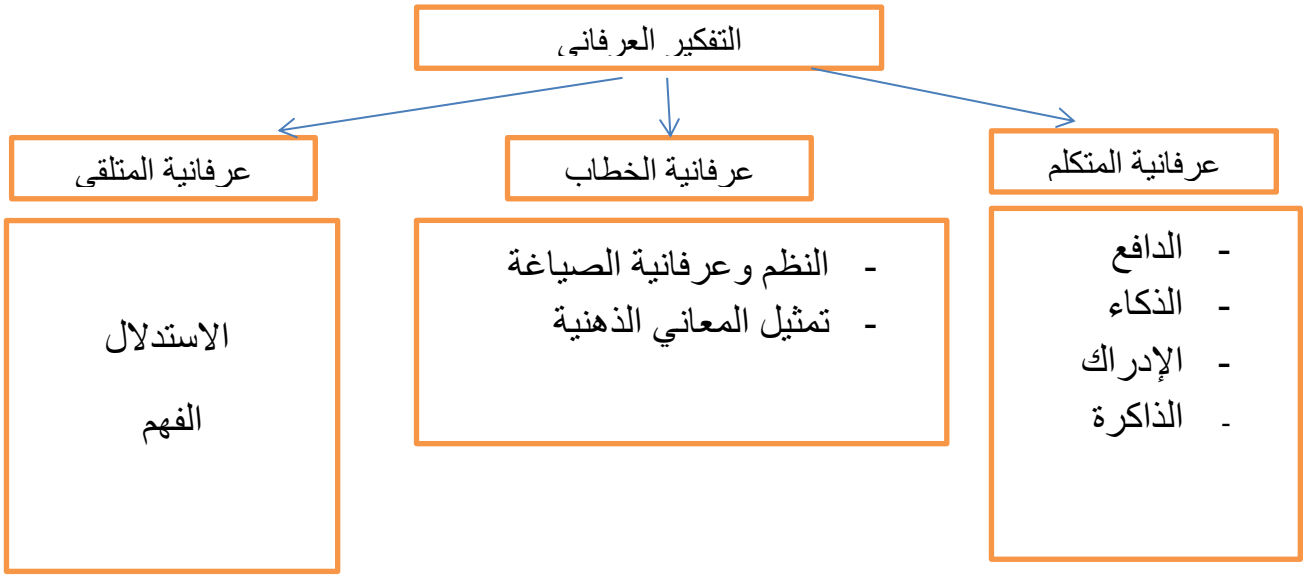

الشكل 1: مخطط يوضح أهم النقاط التي نهض عليها المبحث العرفاني [11]

من خلال هذا المخطط نجد أن استعمال اللغة يرجع إلى النظام العرفاني المتحكم في أصلها بالدماغ، فلا يمكن عزلها عن النشاط العرفاني الذي يقوم به الذهن لتوليد المعاني والدلالات حيث يرتبط استعمالها بمجالها التمثيلي عند الفرد ليكون إنتاج المادة القولية تابعا للرصيد اللغوي الذي يمتلكه ويختزنه، ومن هذا نجد أن البلاغيين القدماء قد اهتموا بعناصر الخطاب كلٌ بحسب موقعه في الدائرة التواصليّة، فالمتكلم هو الذي يولّد المعاني وفق الظروف المصاحبة لذلك المقام، وله مجموعة من الآليات التي تتحكم فيه متمثلة في: الدافع وهو المحفز للإبداع، وتوليد الألفاظ ثم الذكاء الذي هو شرط في توجيه هذا الإبداع، ولكي يحرّك الإبداع لا بد من الإدراك الجيّد للموقف وهذه الألفاظ متواجدة على مستوى الذاكرة. هذا كلّه يدخل تحت ما يسمى بعرفانية الباث أو المتكلّم.

أدرك العرب قديما وظيفة اللغة وأهميتها في عملية التواصل المعبّرة عن الذات المنتجة للخطاب والمستقبلة له، وقد عنيت البلاغة منذ نشأتها بهذه العناصر وتحليل النص في ضوء المقام، وما يكتنفه من ملابسات وما يحكم الخطاب من وعي وقصد، بناء على أن اللغة وسيلة تواصلية يحكمها القصد.

- **التلقي العربي للسانيات العرفانية:**

شهدت اللسانيات العرفانية اهتماما متزايدا في البيئة العربية في السنوات الأخيرة، خاصة مع توسع مجال الدراسات الألسنية ورغبة الباحثين العرب في استكشاف النظريات الجديدة ومقارنتها بالتراث اللغوي العربي. ومع ذلك فإن التلقي العربي لهذا الاتجاه اللساني لم يكن متكافئا في جميع الأوساط الأكاديمية، فمن الباحثين من تقبله، وآخر وفق بينه وبين التراث، بينما تردد آخرون في اعتماده منهجا بديلا عن المناهج التقليدية

التقلي العربي للسانيات العرفانية بدأ متأخرا مقارنة باللسانيات البنيوية والتوليدية التحويلية، التي سيطرت على البحوث العربية منذ منتصف القرن العشرين، والاهتمام بالعرفانية بدأ منذ التسعينات من خلال ترجمة أعمال جورج لايكوف ومارك جونسون، هذه الترجمة كان الغرض منها مناقشة النظريات العرفانية في سياق النقد الأدبي والبلاغة العربية، ثم انتقل الاهتمام إلى نوع العلاقة بين اللسانيات العرفانية والتراث اللغوي العربي، خاصة في مجال البلاغة وعلم الدلالة.

من أهم الكتابات المعاصرة التي نادت بتأسيس نظرية عرفانيّة بإمكانها أن تقدم خدمة جليلة في تحليل الخطابات، وإذا أردنا رصد هذه الكتابات في الوطن العربي فإننا نجد الباحثين التونسيين قد كان لهم السبق في بلورة معالم هذه النظرية من خلال اطلاعهم على الكتابات التراثية والكتابات الغربية، و أبرز هذه الشخصيات الباحث توفيق قريرة الذي تحدث عن بعض القضايا العرفانية من خلال المؤلفات(الشعريّة العرفانيّة مفاهيم وتطبيقات) و(العرفاني في الاصطلاح اللغوي). والباحث الأزهر الزنّاد من خلال كتبه(نظريات لسانية عرفنيّة) وكتاب(النص والخطاب مباحث لسانية عرفنيّة). وهذا الأخير يعتبر من الباحثين البارزين في مجال اللسانيات العرفانيّة، وتمثل جهوده منبعا مهما ورئيسا استفاد منه الباحثون في هذا المجال.

يعتبر الأزهر الزناد(1943-2020) من أبرز الباحثين العرب الذين ساهموا في نقل هذا العلم إلى البيئة العربية، من خلال كتاباته التي قارنت بين النظريات اللسانية والتراث العربي، خاصة في مجال البلاغة، فقد حاول توضيح كيفي يمكن للنظريات العرفانية أن تقدم تفسيرات جديدة للقضايا اللغوية والبلاغية التراثية. إذ أصبحت الكتابات العربية حولها لا تتوقف، حيث نقلت الاستعارة فيها إلى مركز العمليات الذهنية

اقترح الباحث الأزهر الزناد في كتاباته مصطلح " العرفنيّة"، واستنادا على هذا أرجع اختياره لهذا المصطلح لعدة أسباب لعل أهمها: التشارك في المصطلح فكلمة عرفان مثلا في الاصطلاح القديم والحديث تدل على الشكر، كما أنّها استعملت في مجال التعبد والتصوف.

فالدافع وراء نظريته بحسب قوله:" من أبرز الدوافع الكامنة وراء هذا العمل هو ما لاحظناه من اجتراء النظريات بأخذ ما يناسب ويصلح، واجتثاث دون فهم في الأغلب عند المبتدئين باعتقادهم أن العرفانيات شعار يرفع، ولعل ذلك راجع لغياب الأطر الفكريّة العامة"[12]، فهو يحمل على عاتقه مهمة فرز المعلومات المتعلقة باللسانيات العرفانية فرزا منهجيا مبنيا على أسس علمية تشمل الاستفادة منها.

فاللسانيات العرفانية من وجهة نظر الأزهر:" تسمية عامة على تيار أو حركة تجمع عددا من النظريات التي تشترك في الأسس والمنطلقات، ولكنها مختلفة ومتنوعة، ومتداخلة في بنائها، ومشاغلها، وتوجهاتها ومجال العناية فيها"[13]

العرفانية في نظره قامت على نقض تيارات سابقة نقضا منهجيا بالأساس حيث كان الخروج على المنهج الإجرائي القائم على الوصف البنيوي، والتوزيعي، والمنهج الشكلي فكانت اللسانيات العرفانية بمثابة الثورة على القديم.

خاتمة:

من النتائج التي توصل إليها هذا العمل:

- اللسانيات عبر رحلتها عرفت عدة محطات انطلقت من البنيوية فالتوليدية التحويلية وصولا إلى اللسانيات العرفانية التي تبحث عن كيفية تمثيل اللغة في الذهن وكيفية ارتباطها بالمعرفة الإنسانية
- العلماء القدماء قد عرفوا ما يسمى بالموسوعية التي مارسوها في مؤلفاتهم وهذا لون من العرفانية، حيث كانت الآداب عندهم الأخذ من كل شيء بطرف
- يرجع استعمال اللغة إلى النظام العرفاني المتحكم في أصلها بالدماغ، فلا يمكن عزلها عن النشاط العرفاني الذي يقوم به الذهن لتوليد المعاني.
- إن التلقي العربي للسانيات العرفانية لم يكن إلا في السنوات الأخيرة من هذا القرن مع مجموعة من الباحثين العرب
- يعتبر الأزهر الزناد من الرواد الذين ساهموا في الربط بين اللسانيات العرفانية والتراث العربي، وأعاد قارءة البلاغة العربية في ضوء النظريات الإدراكية

قائمة المراجع:

1- القرآن الكريم، برواية ورش عن نافع
2- الأزهر الزناد، نظريات لسانية عرفنية، الدار العربية للعلوم ناشرون، دار محمد علي للنشر، منشورات الأختلاف، تونس، ط1، 2010
3- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز،تح محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1984
4- محمد كريم الكواز، البلاغة والنقد(النشأة والمصطلح والتجديد)، مؤسسة الانتشار العربي، لبنان ط1، 2006

المجلات العلمية:

1- بوسغادي حبيب، التناول التراثي للسانيات العرفانية ومنجزه المعاصر، مجلة الأكاديمية للبحوث الاجتماعية، مج 1، ع2، 2020
2- صليحة شتيح، ملامح التفكير العرفاني عند النقاد والبلاغيين العرب القدامى، مجلة فصول، ع100، مصر،2017
3- عبد السلام عابي، صبعي النذير، من اللسانيات التوليدية إلى اللسانيات العرفانية، تحولات المباحث والمفاهيم، مجلة اللسانيات، مج 24، ع01
4- هبة عبد الرحمان، علم الدلالة العرفاني، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ع 100، مج،25

المو اقع الالكترونية:

1- اللسانيات العرفانية واللغة العربية، ندوة دولية، مخبر البحث في اللغة والمعالجة الآلية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس، اطلع عليه بتاريخ: 2022/12/26، الموقع: http://diae.net/27637

الهوامش:

[1] اللسانيات العرفانيّة، أو المعرفيّة، أو اللسانيات الإدراكيّة، أو اللسانيات العرفيّة؛ كلها مقابلات عربية للمصطلح الغربي Linguistique Cognitive

[2] هبة عبد الرحمان، علم الدلالة العرفاني، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ع 100، مج،25، ص 603

[3] اللسانيات العرفانية واللغة العربية، ندوة دولية، مخبر البحث في اللغة والمعالجة الآلية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس، اطلع عليه بتاريخ: 2022/12/26، الموقع: http://diae.net/27637

[4] عبد السلام عابي، صبعي النذير، من اللسانيات التوليدية إلى اللسانيات العرفانية، تحولات المباحث والمفاهيم، مجلة اللسانيات، مج 24، ع01، ص 124

[5] محمد كريم الكواز، البلاغة والنقد(النشأة والمصطلح والتجديد)، مؤسسة الانتشار العربي، لبنان ط1، 2006، ص 200

[6] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز،تح محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1984، ص 357

[7] صليحة شتيح، ملامح التفكير العرفاني عند النقاد والبلاغيين العرب القدامى، مجلة فصول، ع100، مصر،2017، ص 392

[8] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 50

[9] صليحة شتيح، ملامح التفكير العرفاني عند النقاد والبلاغيين العرب القدامى، ص395

[10] الأزهر الزناد، نظريات لسانية عرفنية، الدار العربية للعلوم ناشرون، دار محمد علي للنشر، منشورات الأختلاف، تونس، ط1، 2010، ص15

[11] بوسغادي حبيب، التناول التراثي للسانيات العرفانية ومنجزه المعاصر، مجلة الأكاديمية للبحوث الاجتماعية، مج 1، ع2020،2، ص 264

[12] الأزهر الزناد، نظريات لسانية عرفنيّة، ص 11

[13] المرجع نفسه، ص 27